بهاء طاهر

عشنا كل الخيانات في التاريخ

obeikandl.com

obeikandl.com

وكأننا نبحث عن شيء ما في داخلنا ولا نعرف ما هو،شيء غامض مجهول لا نستطيع الإمساك به ،ثم نعثر عليه حين يطل علينا بطل من حكايات بهاء طاهر الممتدة منذ مجموعته القصصية الأولي «الخطوبة»، مرورا بأعماله «أنا الملك جئت »، «وقالت ضحي »،«شرق النخيل »،«الحب في المنفي »،«نقطة النور» ،«واحة الغروب».

في المسيرة الروائية لأديبنا العظيم أشخاص حالمون ، ينهزمون حين يضيع منهم الحلم،ومع الهزيمة تأتي حكايات الانكسار التي تعيد طرح أسئلة من نوع :«لماذا حلمنا ؟،ولماذا ضاع الحلم من بين أيدينا ؟ماذا كسبنا ؟وماذا خسرنا ؟ .

تلاحم كل هذه الأسئلة في لوحة تعطي تشريحا نفسيا واجتماعيا وسياسيا بالغ العمق لكل أبطال بهاء طاهر ،ويبلغ درجة تألقه معها إلى الحد الذي نتأكد معه أن هؤلاء الأبطال هم قطعة مني ومنك ،هم التاريخ الذي يقول روايته عبرهم ،وهم نتاج رؤية اجتمعت فيها كل تناقضات ظرف تاريخي معين ،فأعطت لنا صورة بشر عاشوا النصر عمرا قصيرا والهزيمة عمرًا طويلاً.

يكتب بهاء طاهر عن هزيمتنا وأحلامنا المجهضة بلغة شاعرية حزينة ، ولما سألته عن ذلك قال لي أنه يؤمن بمقولة الأديب الروسي تشيكوف: ..«عندما أكتب عن أشياء محزنة ،فأنا لا أدعوكم للبكاء ،وإنما أدعوكم إلى التفكير في السبب أو الأسباب التي دفعت هذه الشخصيات إلى أن تصبح على ما هي عليه».

من مقولة تشيكوف التي يؤمن بها بهاء، يمكن التقاط اللحظة التاريخية التي تدور فيها أحداث رواياته التي تطل منها رائحة التاريخ، خاصة رائعته «الحب في المنفي» ، التي نال بسببها جائزة «الزياتو» الإيطالية عام ٢٠٠٨،وهو أول أديب عربي يفوز بها،وروايته «واحة الغروب » التي فاز عنها بجائزة البوكر ،ومن قبلها روايات « وقالت ضحي » ،وأنا الملك جئت ».

في عام ١٩٩٥ أصدر بهاء روايته « الحب في المنفي »، وجاءت مع اقتراب عودته من جنيف إلى مصر للاستقرار النهائي ، بعد رحلة اغتراب بدأت عام ١٩٨١ سافر خلالها إلى جنيف للعمل في الأمم المتحدة .

كانت غربة بهاء اضطرارية ،بعد مطاردة من السلطة «الساداتية» ،وهي المطاردة التي طالت آخرين غيره ،وبدأت أولى خطواتها في ١٥ مايو عام ١٩٧١ ، وهو اليوم الذي شهد حسم الصراع على السلطة لصالح الرئيس أنور السادات ،ضد مسئولين ووزراء من دولة عبد الناصر، الذين دخلوا السجون نتيجة هذا الصراع ،وكانت هذه الخطوة بداية لنهج سياسي من السادات ،وجد معارضة واسعة من الناصريين واليساريين ، ودفع الكثيرون من هؤلاء الثمن إما بالملاحقات الأمنية أو بالفصل من العمل ،واضطر البعض إلى الهجرة ، وكان بهاء ممن شملهم الغضب الساداتي ، فتم إبعاده عن عمله في الإذاعة ليسافر إلى سويسرا للعمل في الأمم المتحدة.

في الغربة لم يفارق بهاء بلده وتاريخه .حاول منذ خروجه ألا يكون ابتعاده اغترابا ، ورغم ذلك لم يعرف كما يقول:«إن كنت قد نجحت في ذلك أم لا ،غير أن كل ما كتبته في الغربة كان يقصد على وجه التحديد مصر وما يدور فيها» ، يضيف بهاء : «ضمت مجموعة »بالأمس حلمت بك « (١٩٨٤) بعض القصص التي كتبتها في الستينات والسبعينات ،ولكن قصة »العنوان« وهي أول قصة أتحدث فيها عن تجربة الغربة كانت يدا ممدودة إلى مصر ،أما مجموعة «أنا الملك جئت » (١٩٨٥) ،ورواية «قالت ضحى » (١٩٨٥) فقد كتبتا بالكامل في جنيف ،وهما أيضا عودة إلى مصر ، عودة إلى تاريخها القديم وواقعها المعاصر معا للبحث عن جوهرها النقي».

تظل «الحب في المنفي » أيقونة إبداعات بهاء في مرحلة الغربة ،واستقبلها القراء والنقاد بحفاوة بالغة ،جعلت ناقدا كبيرا بحجم الدكتور على الراعي يصفها بالرواية « كاملة الأوصاف » في مقال له بالأهرام ، وحملتني هذه الرواية إلى عالم

بهاء الروائي المتسع ، وكانت بالنسبة لي مفتاحي الأول في محاولة فهم هذا العالم المليء بالشجن والانكسار .

قرأت أعماله الكاملة أكثر من مرة وأمدني هو بمجموعته الأولي «الخطوبة»، وحين كتبت عام ١٩٩٦ عن «الحب في المنفي » في جريدة « العربي » لسان حال الحزب الناصري ،والتي كنت أعمل فيها وقتئذ ، جاء صوته عبر التليفون يسألني عن عمري وهمي الذي بدا كما قال لي فيما كتبته ،كان عمري وقتئذ ٣٥ عاما ،وكان هو مشغولا بالشريحة العمرية التي قرأت وتفاعلت مع الرواية التي تروي مأساة جيل أكبر من جيلي ، وهو الجيل الذي عاش وتفاعل مع الحلم الكبير لجمال عبد الناصر ، قال لي :« أنا مشغول بتفسير سبب إقبال قراء صغار السن في مطلع العشرينات مثلا على الراوية ،دار النشر قالت لي : إن هؤلاء هم أكثر الذين يسألون عنها ،أسعدني ذلك لأنه يغير ما كنت أعتقده ،بأن هذه الأجيال لم تعد حريصة على القراءة ».

تبادلت الرأي مع الأستاذ بهاء حول ما يقوله،ومن الكلام عرف أنني أعيش في إحدى قري محافظة القليوبية رغم عملي في الصحافة ،وأن فيها شبابا أقدموا على قراءة الرواية فور صدورها ،فسألني عن وعي هؤلاء الشباب .هل مازال يشغلهم قضايا السياسة .ما هي ظروف القرية في ظل التحولات الاقتصادية والسياسية ؟. هل يوجد فيها نشاط حزبي أم لا ؟

شرحت له عن تجربة سياسية وثقافية نقودها في قريتنا ،ويقوم عليها شباب ينتمي إلى الفكر الناصري ،وفي مسار التجربة نظمنا أنشطة اجتماعية خيرية ،ومعها ندوات ولقاءات جماهيرية مع رموز سياسية وثقافية ،مثل خالد جمال عبد الناصر ،و خالد محي الدين ،و حمدين صباحي ، والدكتور حسام عيسي ،وغيرهم ،ونظمنا ندوة جماهيرية ،للكاتب المبدع أسامة أنور عكاشة ،ومعه نجوم من مسلسله الخالد

«ليالي الحلمية» مثل الفنانين سيد عبد الكريم وسيد عزمي، وحضرها آلاف دخلوا في مناقشات ساخنة مع النجوم الثلاثة حول المسلسل .

وأطلعته على أننا نظمنا لأعوام متتالية في مطلع التسعينات أسبوعا في الأجازة الصيفية ،كان عبارة عن معرض خيري يتم فيه بيع منتجات خاصة بالعام الدراسي الجديد بهامش ربح يتم توجيهه في النهاية إلى الطلاب الفقراء في المدرسة ،ولم يكن نشاط الأسبوع تجاريا واجتماعيا فقط ، ففي نهاية كل يوم فيه كنا ننظم برنامجا ثقافيا لشباب وأطفال القرية، يشمل الشعر والرسم والغناء وشارك فيها الشاعر جمال بخيت والفنان وجيه عزيز ،والفنان أحمد إسماعيل والكاتبة الصحفية أمينة شفيق، والناشطة في مجال العمل الأهلي سهام نجم ، والكاتبة فتحية العسال التي شرحت لفتيات من القرية عن تجربتها في التعليم والتي بدأت بمحو أميتها،وكان لهذا شرارة البدء في إقدام فتيات ممن استمعن إليها على خوض تجربة محو الأمية ، وقلت له : إن هذا النشاط افتتحه في عامه الأول الفنانة فردوس عبد الحميد ، التي غنت وتحدثت أمام الآلاف ،و افتتحته في العام التالي الفنانة سهير المرشدي .

كان بهاء يسمعني باهتمام بالغ ، ويستفسر :«كيف توفقون بين هذا النشاط وبين عملكم ؟،وهل تضايقكم الأجهزة الأمنية ؟،وهل تلمسون نتائج ايجابية ؟،وهل تحرصون جميعا على قراءة الأدب ؟،كان يسأل وكنت أجيب ،وكنت أشعر كما لو أنه يستقبل كلامي حول تجربة قريتي ،وكأنها تدخل في صميم سؤاله المؤثر والذي جاء على لسان بطل « الحب في المنفي » :« ماذ لو أننا بالفعل قد عشنا الثورة التي نتكلم عنها ؟.. لو أنا قد عدنا نقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ؟..هل كان كل شئ سيموت بالفعل؟».

❊ طفولة بلا ترف.

انتهت مكالمة بهاء الطيبة والدافئة، وترتب عليها لقاءات معه ، اسأله وأسمع منه ،

كان من بينها لقاء على مقهي الحميدية بباب اللوق شتاء عام ١٩٩٧ ،احتفظت به دون أن أنشره صحفيا ،وشمل أسئلة عديدة عما أحب أن أكتشفه في رموزنا المؤثرة ، وأعني بذلك معرفة حياة الطفولة والصبا والشباب ،وكيفية تكوين الوعي ،ودور الأب والأم وتأثير البيئة ،وبرغم أن بهاء تناول قدرا من هذه الجوانب في مستهل روايته البديعة « خالتي صفية والدير » إلا أن الاستماع إليه كان بالنسبة لي متعة كبيرة ، فالذكريات الأولي تعيد الإنسان إلى بدايته بحنين بالغ كلما تقدم به العمر ،كما أنها تمثل متعة في الحكي خاصة عند الذين لديهم القدرة على استدعاء التفاصيل ووضعها في سياق إنساني واجتماعي شامل.

كان بهاء يهز رأسه قليلا ،وكأنه يعيش تفاصيل كل لحظة يرويها لي رغم مرور عشرات السنين عليها ،ومن هناك ،من طفولته ذهب سؤالي ،وعاد هو إلى الوراء قائلا: « ولدت في أسرة متوسطة الحال تقترب أكثر من حد الفقر ،وانتقلت إلى الفقر بخروج الوالد إلى المعاش الذي تزامن مع موجة الغلاء التي عمت مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ،لم أعرف في طفولتي أي نوع للترف الذي يعرفه الأطفال عادة ، كان الهم الأساسي أن نأكل ونشرب ، وهو ترفنا في نفس الوقت،مما وفر لي أهم تسلية ،تلك المتمثلة في الجلوس حول موقد النار للتدفئة من برد الشتاء وسماع حكايات الأم المسلية».

أضاف بهاء : «أقول لك شيئا مهما بالنسبة لجيلنا هو ، أن ظروفنا المالية كانت تعيسة لكن كان هناك إصرار كبير على الالتحاق بالتعليم ،كان من السهل أن يقال لنا اجلسوا من التعليم ، لكن والدي كان يضغط المصاريف والإنفاق حتى نستكمل تعليمنا ،لا أنسي أبدا ما كان يفعله في أول كل شهر ،كنت أراه يمسك ورقة وقلما ليحسب ميزانية المعيشة ،مما زادني شعورا باحترامه يصل إلى حد إحجامي عن طلب أي شيء لنفسي ،كان مشهده وهو يفعل ذلك تجسيدا لمعاناته من أجل استكمال

تعليمنا ».

كان بهاء يتحدث عن الأب بتأثر بالغ ..وشعرت معه وكأنه يتحدث عن الأمس القريب ،ليس من باب الحنين وفقط ،وإنما من باب التأمل لمعني تضحيات الآباء أملا في أن يجدوا الأبناء أفضل منهم :«بعد إحالة أبي إلى التقاعد كان يعمل بين الحين والآخر في المدارس الدينية والمعاهد الأزهرية،وحين كان يعود من العمل في الظهيرة للنوم ،لو رميت الإبرة يسمعها الجميع ،توجيهاته كانت أوامر ،والنواهي أوامر أيضا ،وما أذكره له بكل حب انه كان يغفر لنا الأخطاء بما فيها تلك التي تستحق عقابا شديدا مثل تدخين السجائر ،لكنه لم يكن يغفر أبدا الكذب ،كان الكذب عنده هو الجريمة الكبرى، وأنا في هذه السن أستطيع أن أقول وأنا راضي النفس ،أنني لم أكذب في حياتي العملية ولا الخاصة ،والفضل يعود إليه».

يواصل بهاء: «ما أذكره لوالدي انه كان رجل شديد الإيمان والتدين دون تعصب ، كان له أصدقاء مسيحيون ،وانعكس هذا علينا ونحن أطفال فلم نفرق بين أصدقاء أبي على أساس الديانة ،ونما هذا الأمر معي فيما بعد ، كان الأب وقتئذ صورة السلطة التي تعطي الأوامر ،وتحدد النواهي ،لم يكن هناك إطلاقا إمكانية الحوار بين الآباء والأبناء ،الشئ الذي أتأسف عليه حقا أن تلك الصورة لم تجعلني أقيم بيني وبينه صداقة ،لكنها كانت سمة العصر.عليك واجبات في البنوة ،وتبقي واجباته هو في الأبوة ،لم يكن هناك مجال في تلك العلاقة لقيام صداقة أو مصارحة ،وأحكي لك مثالا ..كنت أقرأ روايات الجيب ،وأخفي عنه ذلك لأنها من وجهة نظره تعطلني عن المذاكرة ،وان أردت التثقيف فعلي قراءة الأصمعي وغيره.»

تحدث أديبنا الكبير عن بدايات التكوين الأدبي والسياسي،وكيف لعب الأب دوره بطريق غير مباشر :«لم يتدخل بشكل مباشر في تكويني الثقافي إلا بالمكتبة والقيم،وأحن إلى ذلك كثيرا وهو غير موجود الآن ، كان في البيت مكتبة فاخرة

تشغل حجرتين ،أنفق كل أمواله عليها ،عكس ما كان يفعله الآخرون بالانفاق على شراء العقارات ،احتوت المكتبة على كنوز الكتب ،منها تفاسير البخاري ،ومقدمة ابن خلدون ،وألف ليلة وليلة ،ولم تحتوي على كتب أدبية حديثة ،ولسبب لا أدريه كان فيها مسرحيات أحمد شوقي ،وأول عمل قرأته من المكتبة،كان مسرحية «مصرع كليوباترا،وكليلة ودمنة المصورة ،لم نكن نفتح الراديو إلا بإذنه ،ومن أجمل لحظاتنا الالتفاف حوله للاستماع إلى صوت أم كلثوم في حفلتها ليل الخميس الأول من كل شهر ».

يواصل بهاء : «ذكرني أخوتي أنني كنت أكره هتلر جدا وأنا في الخامسة من عمري ، وكان ممنوع علينا كأطفال أن نعبر شريط الترام لوجود معسكر لجنود الإنجليز الذين كانوا يعتدون على الناس وهم سكاري ،وكان ذلك أول مكونات الوعي عندي بأننا بلد محتل ،كنا كأطفال نخاف من الجنود الإنجليز بوجوههم الحمراء وملابس الشورت ،وبمجرد مشاهداتهم نجري للاختفاء».

«كان والدي وفديا وترك حزب الوفد بعد توقف ثورة ١٩١٩ ،وظل يحمل عتابا شديدا لسعد زغلول ومصفي النحاس لوقف الثورة الشعبية،ومسئوليتهما عن ذلك ، ويبدو انه كان مشاركا فيها أثناء دراسته في الأزهر،عرفت هذا من بعض ما قالته لي أمي ،أما هو فلم يكن يحدثني أبدا عن أي تفاصيل حول هذا الموضوع» .

يتذكر بهاء:«كان التعليم هو الوطنية التي يحرص أبي على غرسها في أبنائه، وبالتالي كان الاشتراك في المظاهرات ،وما يستتبع ذلك من احتمالات الفصل من الدراسة هو الكارثة العظمي،وفي مرحلة الثانوية بمدرسة السعيدية بدأ عندى تبلور الوعي المعادي للاستعمار ،وشاركت في مظاهرات ضد الحكومات المضادة للوفد ،كما شاركت أنا وأخي الأكبر في المظاهرات المضادة لحكومة صدقي ، شارك أخي في إضراب كلية الطب ،وكل ذلك دون علم الوالد» .

يصمت بهاء طاهر قليلا،ويهز رأسه خفيفا ،ثم يواصل استدعاء الماضي :«المرة الوحيدة التي رأيت فيها والدي يبكي ،كانت وأنا في الصف الأول الثانوي ،كان فارعا في طوله ،وجسمه رياضيا ،يمارس رياضة المشي وهو في سن السبعين ،ويلعب رفع الأثقال ،كان صوته جميلا ،بل ملفت في جماله ،يستيقظ في الفجر ليتوضأ ثم يرتل القرآن بخلفية خبرته الكبيرة في علوم القراءات ، فينصت الجيران لصوته ، ويسألون عليه لو تخلف عن هذه العادة المنتظمة ، كانت علاقة أبي وأمي في البيت من المسلمات ،هي تطيع أوامره مثلنا ،تجهز الإفطار أو الغذاء ،وتقف حتي ينتهي هو من تناول طعامه ،ثم يأتي دورنا بعده ،ودورها بعدنا ،لم أكن أتخيل نوعية العلاقة بينهما ،كنت أتصور أنه يعاملها مثلما يعاملنا ،حتي جاء يوم مرضت فيه مرضا خطيرا ،فقال الطبيب له :« لو مر عليها ٤٨ ساعة محتمل أن تجتاز مرحلة الخطر» ، كانت أياما عصيبة، شاهدته خلالها في حجرته الخاصة بقراء ة القرآن يفتح المصحف، ودموعه تنساب في صمت . ففهمت وقتئذ كم هي جميلة تلك العلاقة التي تربطهما» .

خزانة التاريخ.

كان الأب في بحثي عن ملامح تكوين بهاء طاهر هو الإطلالة الأولي في هذا العالم ،ومنه جاء الحديث إلى روافد أخري .وخاصة تأثره المبكر بالتاريخ الذي سألته عنه،وعن حضوره الواضح في رواياته فقال :«كنت رئيس الجمعية التاريخية في المدرسة ،وأذكر أنني ألقيت محاضرة عن مذبحة المماليك ،تعرضت فيها لمظالم عائلة محمد على ،فغضب مني ناظر المدرسة ،التاريخ عندي شيء معاصر ،فاللحظة التي نعيشها الآن مكوناتها موجودة في التاريخ الماضي ،ولهذا أرى أن كتابة التاريخ بإسقاط على الحاضر فيه قدر كبير من المزايدة، فاللحظة التاريخية الحالية جامعة لكل اللحظات التاريخية السابقة» .

يدلل بهاء على وجهة نظره قائلا :«حين كتبت عن التاريخ المصري القديم في «أنا الملك جئت» ،تصورت أنني أكتب عن قضية معاصرة جدا ،فقضية إخناتون والكهنة الذين انقلبوا عليه تشغلني كثيرا ،وليس صحيحا أنني حاولت من خلال إخناتون الإسقاط على عصر عبد الناصر أو عصر السادات ،ومخطئ من يقرأ العمل بهذا المعني ، أما في «وقالت ضحي » فكتبت عن إيزيس باعتبارها لحظة معاصرة ، التاريخ هو امتداد معاصر،أو ما أسميه «التاريخ.. اللحظة الحالية».

سألت بهاء عن المحطات التاريخية التي يراها فارقة بأحداثها وشخوصها ، والملهمة له روائيا ،فأجاب :«دائما يدور في ذهني حوار حول ما أسميته بـ«التاريخ .. اللحظة الحالية» ،وكما قلت فإن هذه اللحظة مازالت موجودة ،أنا دائم الحوار مع شخصيات التاريخ ،وأفكر في أسئلة من نوع ،ماذا لو لم يعمل أحمد عرابي سهرة ليلة معركة التل الكبير ؟،ماذا لو أخذ عرابي بنصيحة محمد عبيد بقتل الخديو توفيق ، وتعهده لعرابي أنه وحده يتحمل المسئولية الناتجة عن ذلك دون مشاركة من أحد »، ماذا عن الشيخ حسن العدوي شيخ الإسلام والمسلمين الذي أحضروه من السجن إلى المحاكمة بعد فشل الثورة العرابية ،وسألوه عما إذا كان أصدر فتوى بعزل الخديوي توفيق أم لا ؟، فأجاب :« لم تصدر مني فتوى في ذلك ، ولم أسأل في هذه المادة ،ومع ذلك إذا جئتموني الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإني أوقعه ، وما في وسعكم وأنتم مسلمون ، أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن».

سألته عن جمال عبد الناصر ،فأخذ تنهيدة عميقة :« آه من عبد الناصر..مازالت كل أحداثه تشغلني ولم تفارقني بعد ،وأشعر أحيانا أنني لم أحل مشكلته معي في بعض القضايا ، ودائما أسال ،ماذا لو لم يضع ثقته في شخصية مثل عبد الحكيم عامر ؟ ماذا لو تعاون مع اليسار أكثر ولم يضع اليساريين في السجن ؟،ماذا لو مد يده أكثر

إلى المثقفين؟، ماذا لو اقترنت تجربته العظيمة بالديمقراطية ؟ .

كان بهاء يسأل ويسأل ،لكنها الأسئلة المعلقة بين السماء والأرض ،والواقفة على حافة الزمن فلا هي تعيد تصحيح روايات التاريخ ،ولاهي تلغي وقائعه المدونة ، لكنها كما يقول:« ترتبط بمنهجي في تناول ،لتاريخ الذي يتمثل في لتقاط اللحظات التي تركت بصمتها على حياتنا المعاصرة ،وتلك اللحظات تمتد عندي على تاريخ مصر الذي أعرفه كله ،أعرفه من الظاهر بيبرس وعلي بك الكبير وقطز ومقلد يانوس ،ويهيء لي أن مصر هي الدولة الأنسب في العالم التي لا يموت فيها التاريخ ، فشواهده حية وباقية منذ أقدم العصور وحتى الآن ،وتراثه الإنساني مازلنا نعيشه في المناطق التي حافظت بشكل أو بآخر على تراثها كما في بعض مناطق الريف المصري في الشمال والجنوب».

أسئلة بهاء المؤلمة ،والمعلقة على كلمة «لِ»بكل ما تحمله من مرارة النتائج التي ترتبت على أحداث تاريخية ضربتنا في العمق ،يستخلص منها معني عميق لخصه في قوله :«مازلنا نعيش صراع إخناتون مع الكهنة، وكل الخيانات في لتاريخ».

أما مجمل كلامه فجاء متزامنا مع الأجواء المرحبة والفرحة برواية « الحب في المنفي» والمسلسل الدرامي « خالتي صفية والدير » المأخوذ من روايته بنفس العنوان ، ثم عودته نهائيا إلى القاهرة للاستقرار بعد أن أمضي فترة غربته بالعمل في جنيف. ، وبعد ما يزيد عن عشر سنوات من ذلك وبالتحديد في عام ٢٠٠٧ كتب روايته الرائعة «واحة الغروب »،ومع تتبع قراءتي لها شعرت أن « الحب في المنفي » تطاردني.. وحين عدت إلى حواري معه في مقهي الحميدية عام ١٩٩٧ وجدت في إجاباته إشاراته عن الثورة العرابية وأبطالها والخيانة التي أدت إلى فشلها ،فهل كان ذلك مؤشر لانشغاله بالحدث تمهيدا لكتابة « واحة الغروب »؟ .

***

مطاردة بين الروايتين

أيا كانت الإجابة، من المؤكد ومع تتبع مشروع بهاء الأدبي سنكتشف أن أحداث تاريخنا الكبرى هي مصدر إلهامه الأول ،ومن هذه الزاوية أعود إلى سؤالي .. كيف طاردتني «الحب في المنفي »،وأنا أقرأ « واحة الغروب »؟ .

في الروايتين ،غدر وهدر ،حب وخيانة ، أحداث تاريخية نهايتها عكس بداياتها ، وإذا كان بهاء يمتلك براعة كبيرة في اختياره الدائم للحظات المفصلية في تاريخنا لينسج من خلالها عالم حكاياته،فإنه يقفز أكثر بهذه البراعة في الروايتين ، التي اختار لهما حدثين بارزين في تاريخ مصر المعاصر، كانا بمثابة محطتي التوزيع للسرد الروائي فيهما ، فمن الأحلام العريضة التي تولدت مع ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر ،والانكسارات التي حلت بعد رحيله، جاءت «الحب في المنفي »،أما «واحة الغروب» فجاءت من الثورة العرابية بزعامة أحمد عرابي ، والانكسارات التي عششت في النفوس بفشلها الذي قاد إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر ،وكأن بهاء بذلك يريد أن يقول لنا أن التاريخ رواية ممتدة من زاوية أن مصر لم تعثر على طريقها بعد .

في «الحب في المنفي » ،البطل هو شخصية «الراوي» الذي يعبر عنه بهاء بضمير المتكلم ،يبدو وكأنه «الضابط محمود » في رواية «واحة الغروب »، فكلاهما من قماشة واحدة رغم الفرق الزمني بينهما ،والذي يصل إلى ما يقرب من قرن كامل ، قماشة تم نسجها بإحكام من خيوط الحالة العامة التي عاشها الوطن لحظة الفعل للثورتين ،وأصبح عليها بعد انتهاء هذا الفعل ، كلاهما عاش وأنغمس بإيمان مع ثورة،وكلاهما انكسر مع ضياع أهداف هذه الثورة ،وكلاهما عاد إلى طرح أسئلته الأولي بعد أن ظن انه عثر على الإجابة عليها لحظة القيام بهذا الفعل الثوري .

في الشخصيتين وكعادة بهاء يتم الغوص في التضاريس الإنسانية والنفسية ،لنري

ملمحا كاملا لتكوينها منذ النشأة مرورا بباقي مراحل العمر، والإمساك بهذا الغوص يكشف عن أن تكوين الشخص لا يأتي فقط من مجرد تراكم في المعرفة والفكر مثلا ،وإنما هناك ظروف النشأة في المحيط الأسري الضيق ،والمحيط الاجتماعي الأوسع ،وتلعب كل هذه المسائل أدوارها في التكوين، لتعطي لنا في النهاية شخصيات بطعم ولون محدد،شخصيات قد تخون حلمها الذي آمنت به بقناعات أيدلوجية في فترة ما ،ثم تنقلب إلى النقيض حين تدهس الأحداث هذا الحلم ، ولو قلبنا في الأسباب سنجد أنها كانت مخبأة في التكوين الإنساني لهذه الشخصيات.

ورغم أن بهاء يتميز دائما بهذا النهج في بناء شخصياته الروائية ،فإننا نلحظه أكثر وأعمق في الروايتين، بالدرجة التي لا ينفع معها الإتيان ب« مزورة الأيدلوجيا » لقياس التطور الدرامي لهما ،فهو يعطينا روايتين إنسانيتين بامتياز، رغم أنهما ترتديان ثياب مطرز بأحداث تاريخية كبري حددت مصير مصر منذ عام ١٨٨١ ،وحتى وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨١ .

«الراوي» ،والضابط محمود، هما اللاعبان الرئيسيان على مسرح الأحداث في الروايتين ،وهما نقطة الارتكاز للحدث الروائي ،وتتفاعل معهما باقي الشخصيات رغم اختلاف المساحة الزمنية لكل شخصية ،وتلعب البيئة دورها الرئيسي في البناء الدرامي للروايتين ،فمن عالم الغربة تأتي الإطلالة على الماضي والحاضر،الماضي الذي يختزن وهج الحلم ثم انكساره ،والحاضر المسكون بكل هذا المخزون فتأتي منه الحسرة على ما كان ، ورغم أن البيئة الجغرافية لرواية « الحب في المنفي » ليست هي بيئة « واحة الغروب »، فالأولى ينطلق مسرح أحداثها من أوروبا ،والثانية ينطلق مسرح أحداثها من « واحة سيوة »،إلا أن الغربة عن الزمان والمكان والنفس ،تبدو أقرب إلى القواسم المشتركة للشخصيات اللاعبة على مسرح الروايتين .

يلتقط بهاء طاهر في « الحب والمنفي » مذبحة «صبرا وشاتيلا »التي ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين في لبنان أثناء حصارها لبيروت عام ١٩٨١ ،ومن خلالها يسبح بشجن نبيل من خلال بطل الرواية في مأساة جيل عاش أحلاما عظيمة مع جمال عبد الناصر ،وعاش الانكسار بعده ،وكانت المذبحة تتويجا لضياع أحلامه .

جيل عاش لحظتين ومأساة واحدة ،لحظة غني فيها راديو القاهرة لشعوب «كالبشائر تنبت الأزهار في قلب المجازر»،غني لبورسعيد في المقاومة ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ،و لشعب الجزائر في مقاومته للاستعمار الفرنسي حتى نال استقلاله عام ١٩٦٢،و غني لشعب الملايو ،لحظة كانت الصحف تقول فيها :«أن انتصار الناس في أي بلد يعني الحرية لنا ،وبالتالي كان البكاء شاهد اعلي قتل لومومبا زعيم الكونغو على يد البلجيكيين وأعوانهم ،وكان شجيا من«صديق حين يسمع قصيدة: «الأطفال في بلدي يموتون جوعا، والأسماك في البحر تشرب القهوة ».

تجمدت الدموع بعد ذلك ،ولم تعد تسيل حزنا على الشهداء ،أو تحسرا على الكرامة ،وإنما بسبب إدمان النظر إلى التليفزيون،وتلك هي خلاصة اللحظة الثانية في مأساة هذا الجيل ، الذي يصف حالته واحد منه هو إبراهيم الصحفي الماركسي بقوله: «جيل توقف نموه ».

ويلتقط بهاء في « واحة الغروب » حادثة تفجير معبد «أم عبيدة» في واحة سيوة عام ١٨٩٧ ،وينسب هذا التفجير إلى مأمور القسم بالواحة ،واسمه محمود عزمي ، أخذ بهاء هذه الحادثة الحقيقية التي تركت آثارها حتي الآن على الواحة، وبني عليها أحداث روايته ،كان هدم المعبد في الرواية تتويجا لمأساة جيل وجد نفسه فجأة أمام احتلال إنجليزي بدأ لبلاده ، بالخيانة التي أدت إلى هزيمة الثورة العرابية، فازدحمت عليه الأسئلة دون أن يحصل على إجابة عليها ،والضابط محمود هو رمز لهذا الجيل الذي عبر عن ضياعه بنسف المعبد الذي يرمز إلى الماضي .

في « الحب في المنفي »،التقي إبراهيم ،و«الراوي » خارج مصر وتحديدا في أوروبا ، سافر إليها «الراوي » مديرا لمكتب صحيفته ،وكان هذا بمثابة عملية استبعاد مقصودة ، تاركا وراءه نشاطا سياسيا مارسه في دولة عبد الناصر من خلال موقعه في الاتحاد الاشتراكي،ومجدا صحفيا جعله قريبا من موقع رئيس التحرير ، لكنه لم يصل إليه ،فلما جاء السادات ووجه ضربة مؤلمة بالقبض على رموز دولة عبدالناصر وإيداعهم السجون ضاع كل شيء ، وأصبح المستشار الذي لا يستشيره أحد ، وأصبح «الراوي » رمزا للدفاع عن لزعيم الراحل أمام الهجمة الإعلامية الشرسة التي سمح بها السادات ضد عبد الناصر.

أما إبراهيم فسافر إلى أوربا كمحصة في اغترابه التي شملت دولا عربية رافضة للسادات ، التقي الاثنان، وكل منهما يجر خيبته في حلمه العام والشخصي ،وتدور الحوارات بينهما على خلفية ما كان من خلافات حول نهج عبد الناصر.

جاء إبراهيم في « الحب في المنفى » نموذجا للمناضل الماركسي الذي عاش متفائلا بفضل قناعاته النظرية التي تقود إلى «الحتميات » في كل شيء، وجاء موازيا للبطل «الناصري» الذي لم نعرف له اسما ،وإنما جعله المؤلف «راويا» ،مما أدي إلى الشعور بأن بهاء يكتب عن نفسه وحلمه ، يكتب عن كل جيله ، وأكسب هذا الشعور الذي يصل إلى حد الحقيقة مصداقية هائلة في الحكي والتطور الدرامي لكل شخصيات الرواية ، وخلق التوازي بين «الراوي » «الناصري» وإبراهيم «الماركسي» ،مساحة مدهشة في الحكي بلغة سردية جميلة .

التقي « الراوي » مع إبراهيم بعد فراق سنوات ،ليتجدد الصراع بينهما على أيهما كان أصوب في قناعاته، على الرغم من شعورهما بأنهما شبحان من عصر مات ، فعبد الناصر لن يبعث من جديد ،وعمال العالم لن يتحدوا ،و يلخص «الراوي» ما كان بينهما بقوله:« كان هو ماركسيا متحمسا يقول : إنني مثالي وحالم ،وكان رأيي

فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس ،أيامها كنت أقرأ ساطع الحصري والقوميين العرب ،واعتقدت مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ،وعلقت فوق رأسي بالفعل في صالة التحرير الكبيرة التي تضمنا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا :«دولة عظمي تحمي ولا تهدد ،تصون ولا تبدد»،كتبها لي خطاط الصحيفة بخط كوفي جميل ،ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير ،وكان إبراهيم يحرص على أن أري ابتسامته، وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق في التأمل فأثور ويبدأ بيننا الجدل والشجار »

يصارح «الراوي» إبراهيم بأنه هو الذي منع مقاله الذي كتبه عن بيان ٣٠ مارس، وقال فيه أن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنه ممكن أن ينفذ الإصلاحات ،فيرد إبراهيم :« انزل الآن يا صديقي إلى أي شارع في القاهرة واسأل الناس عن بيان ٣٠ مارس ،إن وجدت في مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون هذا البيان فتعال نتحاسب ،يا سيدي أين نحن من تلك الأيام ،ارجع لنا هذا الزمن ثم أوقفني عن الكتابة كما تشاء ،هل يرضيك أن أقول إنني أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟..كان معك حق في كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطئ».

ويصل «الراوي » إلى ذروة الاتهام لإبراهيم :«أراد أن يغير الحياة في بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم »،فيرد إبراهيم بحدة:«كيف حاربناه نحن وأين حاربناه؟ في معتقل الواحات أو في معتقل القناطر ؟ أو ربما نكون نحن الذين حاربناه في اليمن وسيناء دون أن أدري ..انظر إلى الأمور كما هي يا صديقي ،لم نكن نحن أبدا السبب فيما حدث ..بل ها نحن ندافع عنه الآن رغم كل ما جري لنا»

و تبدو هذه الحوارات في مستهلها أقرب إلى تصفية الحسابات ،إلا أنها تنتهي عند نقطة جامعة ،وهي أن كلا منهما متشبث بيقينه لكي لا ينتهي عالمه ،لكي لا يضيع

الحلم الذي دفعا فيه عمرا بأكمله ،وفي الحوارات يظهر بعمق أن انكسار الأحلام لا يأتي من الهزيمة العامة وفقط ،وإنما أيضا من محن شخصية أخري يساهم فيها التكوين الشخصي والاجتماعي لهما،فمع ضراوة الاشتباك بينهما في حوارات السياسة والفكر ،يطاردهما أيضا الطفل فيهما .

يسأل إبراهيم نفسه :« متي بدأت همومي ..هل كانت أمي هي السبب ؟..ربما .. هي أول حزن وعيت عليه في حياتي دون أن أفهم سببه ».

يتحدث إبراهيم عن أمه المسكينة المنكسرة ،ويذكر أنه كان يعرف وهو صغير جدا أن والده (مالك الأرض) يخونها .وشاهده وهو في الخامسة من عمره وهو فوق إحدى النساء ، ولما جري إلى أمه حتي يقول لها ما شاهده ،شعر أنه يمكن أن يقتلها : «كانت هشة كالفراشة »،وما بقي من هذه المأساة عند إبراهيم سؤال لم يغادره أبدا ولم يعثر على إجابته:«ما الذي فعله أبي بالضبط حتى حطمها بهذا الشكل ؟.

لم تكن محنة الأم وانكسارها هي الشقاء الوحيد في طفولة إبراهيم وإنما حسب قوله :« ما أشقاني مع أمي هو نفسه ما عذبني ،حين كنت أري أبي ورجاله يسرقون الفلاحين بعد ذلك»،ولما كشف الأمر أخذه والده إلى القاهرة ووضعه في مدرسة داخلية.

كبر إبراهيم وتكون وعيه بفضل المكتبة التي جمعها والده دون أن يقرأ منها كتاب واحد ،كان يكتفي بطبع اسمه بخط النسخ المذهب على كل كتاب ،وعلي العكس من استدعاء الطفولة في محنة أمه ،شاغله سؤال الكبير «ماذا لوأن شيئا من ذلك لم يحدث ؟هل كانت حياتي ستفسد من أولها »..هل كانت عيني ستقع على العطب في كل شيء ؟...لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلما يستمتع بها كل إنسان ؟».

أصبح إبراهيم «شيوعيا »، واعتقل في حملة عبد الناصر ضد الشيوعيين عام ١٩٩٥ ،وانتهت قصة حبه مع شادية بالفشل ،اشتعلت شادية بحبه انفعالا وحماسا وهي محررة صحفية ،فكانت تتحدث عن حركات التحرير في إفريقيا ،أو عن تطور

الهجرة إلى إسرائيل ،أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان ،وظلت شادية على عهدها في حب إبراهيم أثناء اعتقاله ،وكتبت له خطابات ملتهبة حبا وهو في السجن ،ومع طول فترة السجن كتب لها يحررها من حبها له ،وان أرادت الانتظار فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال، بعد خروجه تبدل كل شيء ، وانقطعت العلاقة بينهما ، فنقلت نفسها من العمل الصحفي إلى الإداري ،وتزوجت من صراف الصحيفة «عم عبد اللطيف » ،وأصبحت تتنقل بين المكاتب وهي حامل ،أو منتفخة البطن ،تسأل عن أخبار المحررين والموظفين لتنقلها من مكتب إلى آخر ،وتفعل ذلك بضحكة مجلجلة قائلة :«أموت في النميمة».

مثلما طارد« الطفل» إبراهيم وهو كبيرا ،طارد الطفل أيضا «الراوي»، :«أعرف أن الشقاء ندبة في الروح ،إن بدأت في الطفولة فهي تستمر العمر كله ،وأفهم أنه لا توجد ندبة تشبه أخري ،ولكني أسأل نفسي أيضا حتى وان لم تتشابه تلك الندوب ، أليس ذلك الشيء المحفور في أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنا على البعض ؟،ألا نتشابه نحن أيضا ؟».

ما هي الندبة التي ظلت تطارد «الراوي » منذ طفولته ؟،وكيف حاول قهرها مستعينا بالظرف السياسي الذي سمح بذلك؟

هو من خلفية اجتماعية فقيرة ،كان والده «فراشا » في المدرسة وكان هو تلميذا ضمن حفنة صغيرة فقيرة من التلاميذ وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة الذين كانوا يجدون متعة في إهانة الفقراء ،يتذكر «الراوي »:نجح البعض في ستر فقرهم ،أما أنا فكيف أستطيع ؟وكيف كنت أملك أن أخفي درجاتي العالية في كل المواد ؟، ولكن حتى بعد أن خرج أبي إلى المعاش وأنا مازلت في المدرسة الابتدائية ظل لقبي متوارثا لدي أجيال المدرسين ،عندما يأتي مدرس جديد ويبدأ كالعادة في قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذي لا مفر منه «ما هي مهنة

الوالد؟..يتطوع أكثر من تلميذ في الفصل قبل أن أرد «كان فراش المدرسة » ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سببا يمنعه من أن يسبني ومن أن ينزل بي كل العقاب الذي يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين »،كم مرة تشاجرت مع التلاميذ الذين أهانوني بسبب أبي ؟،كم مرة ضربتهم وضربوني وأسلت دماءهم وأسالوا دمي دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبي بسبب جروحي .

ورغم أنه ظل يفتخر بوالده في كل المحافل السياسية والصحفية ،إلا أنه وفي نوع من مكاشفة الذات أثناء تواجده في أوربا طرح من جديد الأمر على نفسه:«أحكي للجميع عن أبي فراش المدرسة الذي قنر على نفسه وادخر الملاليم والقروش لكي يعلمني في الجامعة ،ولكن هل شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولي ؟هل أزالت المهانة ؟..ربما ...عندما كان الرئيس (جمال عبد الناصر) واحد منا ،نحن أبناء الفقراء ،وعندما انحاز إلينا ..عندما لم يكن الفقر عارا ..ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملأ «كشف الأسرة»،وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل الكلية الحربية ؟.فما الداعي إذن إلى التظاهر ؟..ما الداعي إلى الكذب ،انتهت جنة الفقراء ..لم توجد يوما جنة للفقراء ...كانت تلك أيضا كذبة يجب أن ننساها ».

عبد الناصر

يتسلل عبد الناصر في هذه الخلفية الاجتماعية وكأنه يدير أدق تفاصيلها ،فهو من كان سببا في سجن إبراهيم وبالتالي ضاع حبه وضاعت شادية ،وهو من كان سببا في حلم «الراوي » ولما رحل بدأ انهيار الحلم الذي لم يتوقف عند التراجع العام في قضايا الاستقلال والعدالة للفقراء ،وانما امتد إلى طلاق « الراوي »ومنار بعد قصة حب جميلة وولد وبنت ،وتناول بهاء هذه العلاقة المركبة بشجن بالغ ،فهي تولدت مع وهج الحلم العام الذي انغمست فيه منار بعمق ، وبفضل ذلك حررت صفحة

ناجحة عن المرأة قالت فيها كلاما كثيرا تقدميا عن المرأة ،ولما أعلن عبد الناصر التنحي ذرفت الدموع ،ثم دخلت في انهيارات وإغماءات وقت موته ،لكن هذه الأحوال تبدلت حين أصبح حب عبد الناصر مدفوع الثمن ،ولأنها زوجة «الراوي » اختزلوا صفحة المرأة إلى الربع ،فكان هذا بداية انسلاخها عما دافعت عنه ورددته في الماضي .

تذكرت منار أن عبد الناصر هو سبب النكسة والمعتقلات، وكل الأشياء التي خرجت من أفواه خصومه ،وأصبح كل ذلك هو الطريق نحو اختيارات جديدة ، تتمثل في شرائها الفضة واكتنازها وبيعها مع ارتفاع الأسعار والمشاركة على ربع تاكسي ثم الطلاق ،والتحول إلى صحفية محجبة تتكلم عن المرأة وقضاياها عكس ما كانت تقول في الماضي ،ليس هذا فحسب بل أنها أصبحت تستدعي أصلا جديدا لها يتناسب مع الموجة الجديدة ،فوالدها الموظف البسيط الطيب،أصبحت تتحدث عنه على أنه كان موظفا كبيرا قوي الشخصية ،يهابه الجميع في المكتب بسبب حزمه وشدته في الحق ،وأخذت هي مع مرور السنين تصدق هذه الكذبة .

يحلل بهاء تحولات منار بسرد نفسي شجي ،يقودنا إلى فهم شخصيتها كنموذج للذين تحولوا مع مرحلة الانفتاح الاقتصادي الذي أعلنه السادات واقترن به الفساد وأحلام الثراء السريع ،وبدا لهؤلاء المتحولون أنهم منهزمون، لكنهم يعوضون هزيمتهم باستثمار المرحلة في اكتناز المال والبحث عن نسب يعززه، وعلي نفس وتر الهزيمة يأتي يوسف الذي يتعرف عليه الراوي في أوروبا كرمز لجيل الجامعة «الناصري» في السبعينات ،وهو الجيل الذي حمل على عاتقه عبء المواجهة ضد السادات ،جاءت به الرواية كامتداد لمفهوم الانكسار الذي لم يقتصر على جيل «الراوي » الذي تربي في ظل دولة عبد الناصر .

ترك يوسف كلية الإعلام و هو في السنة الثالثة ،وهاجر إلى أوروبا بعد الحكم عليه بالسجن ستة أشهر بسبب اشتراكه في المظاهرات التي شاهدتها الجامعة ضد

السادات ،ورث يوسف عن أبيه حب عبد لناصر، وحين وقعت كما يقول «الفاس في الراس »لم يجد هو وجيله القدوة» .

تتسلسل الهزائم فتطول أجيالا جديدة، وتتمثل في في خالد وهنادي ابنا «الراوي» خالد الذي يطوله التأثر بموجة التدين التي جاءت مع انتشار جماعات الإسلام السياسي ،وهذه الأجيال لم تعش فترة الحلم حتى تشعر بمرارة فقدانه ، لكن بهاء أراد أن يقول أن الهزائم لم تنحصر في جيل بعينه وإنما أصبحت عابرة للأجيال ، وعابرة للأوطان والأفكار، وإذا كان خالد ابنه نموذج للجيل الجديد ، فان البرت الإفريقي هو نموذج يعكس حالة انكسار الأفكار ، خرج البرت من بلاده مطاردا إلى أوربا ،ووضع كل همومه في محاربة ديكتاتور بلاده «ما سياس »، وضاع بعد الزواج من حبيبته بريجيت ،ولم يعد مناضلا أ وزوجا أو حتي إنسانا .. أصبح البرت خيالا بعد أن كان يهز الأفئدة حين يردد رثاء «لوركا » الموجع لصديقه مصارع الثيران.

هي قصة الحلم ونقيضه التي أراد بهاء أن يقول إنها لم تقتصر عى أجيال منطقتنا وفقط ،وانما امتدت إلى بلاد أخري لها نفس ملامحنا ،وببناء درامي رائع يكشف بهاء من خلال قصة البرت كم هي قاسية المجتمعات الغربية في عنصريتها ،فصياعه جاء على أثر سخرية موجعة وتحرش جسدي قاسي قادها شباب مخمور ضد إفريقي أسود تزوج من ابنة الجنس الأبيض ، ،فقد الاثنان طفلهما الذي كان جنينا في بطن بريجيت ،كما فقد البرت نفسه بعد أن تحول إلى جاسوس لصالح من كان يناضل ضدهم .

انكسار «الراوي » وابراهيم ويوسف وشادية ومنار والبرت ،يضعه بهاء في سياقه الزمني ،ويبلغ به الذروة بتوضيحه كم تم توظيف المال النفطي لصالح تعميق هذا الانكسار ،فهذا هو الأمير حامد يتاجر بالفكر القومي وبعبد الناصر وينوي إصدار صحيفة قومية من أوروبا ،ويعرض منصب رئيس التحرير على «الراوي » الذي يصدم باكتشافه علاقة الأمير مع رجل أعمال اليهودي «ديفيد يان» الذي

تبرع لإسرائيل بمائة ألف دولار وقت الغزو الصهيوني لبيروت ،أما الصحيفة فما هي إلا أداة يريدها حامد في يده للوصول إلى كرسي الحكم لبلاده .

هل كان كل ذلك سببا في الوصول إلى ذروة المأساة العربية مع مطلع الثمانينات، والتي تمثلت في حصار بيروت ومذبحة صبرا وشاتيلا ؟،تلك المأساة التي دفعت الشاعر خليل حاوي إلى الانتحار احتجاجا على الصمت العربي ،انتحر حاوي الذي صدق عبد الناصر وصدق رؤيته ،وعاش غسان محمود الذي رفض استقبال جرحي المذابح الصهيونية من الأطفال في مستشفاه طالما لا يوجد الثمن ،ومن جديد يضع «الراوي تلك المأساة في رقبة عبد الناصر من خلال مشهد درامي مؤثر . يقفز الراوي من فراشه ،ويخرج إلى الصالة ليقف أمام صورة عبد الناصر ويسأله : «لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوي ؟ ..لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟،كان قد رآنا كما قلت أنت نغتسل الصبح في النيل وفي الأردن وفي الفرات .. فلماذا كذبت عليه؟ ...لماذا ربيت في حجرك من خانوك وخانونا ..من باعوك .. ومن باعونا ...لماذا لم يبق غير غسان محمود ؟، لا تدافع عن نفسك ولا تجادلني ، فهاهو خليل حاوي قد انتحر ،ثم ماذا تريد أن تقول ؟ ،إننا كان يمكن أن نفعل شيئا ؟. كيف وخليل حاوي لم يكن يملك شيئا غير ضلوعه ،تلك التي مدها جسرا وطيدا من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟، أي شرق جديد ولم يعد هناك شيء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ سلاحه لم يكن يصلح لشيء غيرها فما رأيك؟

تنتهي «الحب في المنفي »بوصول البطل «الراوي» إلى مرحلة اليأس من كل شئ ، وفي الطريق إلى النهاية ،تحتشد عنده خلاصات الزمن الذي عاشه :« سيمر الزمن وسيأتي بعدنا من يعرف لما تعذبنا ،سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا ،لا، لم يقل تشيخوف ذلك ، قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن

السعادة ،ولكن هل سيذكرنا حقيقة أحد ؟ .هل ستذكرني هنادي ؟ .. هل سيلد عذابنا تلك السعادة ؟ ».

يسير الرواي في شوارع المدينة الأوربية التي تعد بمثابة خشبة المسرح التي تستدعي كل أحداث الرواية،وفي سيره ينطلق صوته الداخلي محدثا نفسه بكلمات من نوع :« لن تصفي مع العالم أي حساب ،كل شيء ينتهي » ، « مرة أخري أفقد الطريق ،فقدته من زمن طويل » ، يصل إلى حديقة مهجورة ويجلس أمام النهر فيخترقه الصمت صوتا سائلا : هل تريد ؟ فيرد : نعم أريد ، فيسأله :« ماذا تريد ؟، فيرد :« أن أفهم ،من أكثر من خمسين سنة أحاول أن أفهم ،حاول الطفل ،وحاول الرجل ،ورجع الطفل ،ومات الرجل وكله دون فائدة .مائة سنة تكفي ».

هي كلمات ما قبل النهاية ، أما النهاية :« كان الصوت يأتي من بعيد ..يا سيد يا سيد ..هل أنت بخير ؟

لم أكن متعبا ..كنت أنزلق في بحر هادئ ..تحملني على ظهري موجة ناعمة وصوت ناي عذب .

وقلت لنفسي أهذه هي النهاية ؟ ما أجملها ،وكان الصوت يأتي من بعيد .

كان الصوت يكرر يا سيد .. يا سيد ...ولكنه راح يخفت وراح صوت الناي يعلو

وكانت الموجة تحملني بعيد ..تترجرج في بطء وتهدهدني ..والناي يصحبني بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام والسكينة».

عرابي

كما أخذ بهاء ثورة يوليو وزعيمها عبد الناصر محطة لتوزيع الأحداث في « الحب في المنفي »، أخذ من الثورة العرابية محطة لتوزيع أحداث «واحة الغروب ».

ومثلما كانت ثورة يوليو هي البصمة التاريخية والنفسية على «الراوي »في «الحب والمنفي» ،كانت الثورة العرابية هي البصمة على ضابط البوليس محمود عبد الظاهر

في «واحة الغروب » التي تدور أحداثها في «واحة سيوة » نهاية القرن التاسع عشر .

تبدأ «واحة الغروب » بتلقي محمود عبد الظاهر قرارا بالانتقال إلى واحة سيوة على سبيل الترقية مأمورا لقسم الشرطة بها ،فيتعامل مع القرار وكأنه نفس الانتقال النفسي من توهج حلمه مع الثورة العرابية إلى انكساره لفشلها ،ويبدو في ذلك انه النموذج المتولد من كل هزيمة في تاريخ مصر ،خاصة الهزيمة التي تأتي من أحداث كبري ،كما أنه الشخص المتولد منه أسئلة هي في حقيقتها محاكمات للنفس لا تنتهي ، يعبر محمود عن ذلك بقوله :«أدمنت التفكير في نفسي ،وكلما فتحت صفحة وجدتها أسوء من التي سبقتها ..ليتني لم أكن !! ما الذي يعيدني إلى أيام المجد في لحظات الخيبة »

يتذكر محمود قبل سفره إلى سيوة حياته مع والده وأخيه سليمان في بيتهم الكبير في عابدين أواخر أيام الخديو إسماعيل ،وكيف تعرف في مقهى متاتيا على الرجل الذي يتحدث بلغة الأتراك وأهل الشام وهو الشيخ الأفغاني ،وإدمانه الخمر والنساء إلى جانب إدمانه الأفغاني،ثم سعيه إلى الانضمام للحزب الوطني الذي لا يعرف طريق الوصول إليه

يسأل محمود ..لماذا لم يأته الاستقرار أبدا ؟..لماذا هو مراوغ وبعيد ؟..ويقول : «اليقين الوحيد هو تلك البدلة الرسمية التي ألبسها والمهنة التي جاءتني دون أن أرغبها »،لم يرغب محمود في الالتحاق بالشرطة، وإنما كانت من اختيار والده بعد إفلاسه في التجارة حتى يمكن أن يعول أمه وأخيه براتبه .

كره محمود الإنجليز ،وبدا ذلك في مواقف كثيرة وصلت إلى حد انه ظل يؤجل قرار زواجه من كاثرين (عاشقة الشرق) بعد أن تعرف عليها في أسوان ،ولم يحسمه إلا بعد أن عرف أنها أيرلندية، وتكره الإنجليز مثله لأنهم يحتلون بلدهم مثل احتلالهم لمصر.

يصطحب محمود زوجته كاثرين إلى سيوة ،وفي الطريق إليها عبر الصحراء، وحتى استقراره فيها لم ينقطع حواره مع نفسه،ويستخدم بهاء في ذلك أسلوب

«الفلاش باك» ببراعة متناهية ،ولغة شاعرية ساحرة معهودة منه. يلخص محمود حياته في معني عميق :«مسرات قليلة وأحزان ثقيلة ..ما الذي نملكه غير هذه الحياة ؟..يجب أن نعيشها حتي آخر لحظة »

تضغط تفاصيل ما حدث مع أحمد عرابي على محمود بعد أن شاهد من خلال بيته في عابدين (الولس) الذي كسر عرابي و(الولس) الأكبر بعد أن كسروه : « نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطب الملتهبة ضد الإنجليز أيام (الهوجة) ، رأيتهم هم أنفسهم ،يترجلون بجلال من عرباتهم بثيابهم المطرزة ونياشينهم المذهبة لينضموا إلى الخديو في منصته ،وهو يستعرض جيش الاحتلال وعلي يمينه الأميرالاي سيمور الذي دمرت مدافع سفوله الإسكندرية وعلي يساره الجنرال ولسلي الذي أباد بمعونة الخونة جيشا في التل الكبير ،وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكوات والباشوات جمعوا فيما بينهم مبلغا كبيرا من المال، وقدموا هدايا معتبرة لسيمور ولسلي ،ويومها بكيت نفسي وبلدي».

يتذكر محمود معركة ضرب الأسطول الإنجليزي لمدينة الإسكندرية بعد أن تم انتدابه اليها هو وزميله طلعت ،ورأي من خلال عمله كيف اختلط النهب بالتدمير والقتل ،واحترقت المدينة في مشهد لم يستطع أحد أن يفرز فيه من خان ومن لم يخن .

يجد محمود واحة سيوة مغلقة وبقسوة على نفسها وتقاليدها ،وتجد زوجته كاثرين في هذا الانغلاق فرصتها لتحقيق حلمها بالعثور على مقبرة الإسكندر الأكبر، ويصطدم الاثنان بثقافتها المدنية مع هذا الانغلاق ،ووصل الأمر حد التفكير من أهل الواحة في قتلها .

في هذه الأجواء تظهر الشخصيات في الرواية من أحداث التاريخ البعيد كالإسكندر الأكبر ،والقريب كبطل الثورة العرابية محمد عبيد ،والحاضر كأبناء سيوة مثل مليكة والشيخ يحي و صابر والشاويش إبراهيم ، والضابط وصفي الذي

تم إرساله من القاهرة لمعاونة محمود ،ومعهم في الصورة فيونا شقيقة كاثرين زوجة محمود ،ولكل شخصية من هذه الشخصيات قصة ، يمزجها بهاء مع بعضها في حكي متداخل لتعطي وبعمق معني الانكسار الذي وصلت إليه .

من أحداث الثورة العرابية التي يستدعيها الضابط محمود والتي شكلت حلمه الايجابي ، نري في مقابله وعلي النقيض منه الضابط وصفي ،الذي يري فيما فعله العرابيون « فتنة عصاة عطلتنا عن التقدم » ،ويري أن محمد عبيد « خائن » لأنه عرض على أحمد عرابي قتل الخديو.

من التاريخ البعيد تتحدث الرواية عن الإسكندر الأكبر،الذي عاش ٣٣ سنة لم يعرف فيها أبدا طمأنينة النفس .. حارب وانتصر ..وملك الدنيا ،ومع ذلك عاش حياته بائسا ،لا يعرف من هو ،هل هو اسكندر النغم الذي أحب أرسطو والشعر والموسيقي والحكمة ،وبفضله وضع كتاب الإلياذة تحت وسادته في السلم والحرب ؟، أم هو اسكندر الدم الذي ورث عن أمه عدم التورع في القتل ،دون أن يعرف الندم؟ ، أم اسكندر الذي تساءل بعد مجيئه إلى مصر؟ :« أيهما الأصلح لحياة الإنسان على الأرض.. البهجة أو الخوف لكنه حاول فرض الجواب ؟» .

لم يكن الإسكندر مقحما على أحداث الرواية ،فهو الذي تبحث كاثرين عن مقبرته ، كما أن بهاء غاص في تكوينه النفسي الذي كان في حقيقته خلفية رئيسية لحروبه ،وساهم هذا الاختيار من بهاء في التأكيد على انه ليس شرطا أن يكون المنتصر سعيدا، حتى لو كان بحجم الإسكندر «فاتح الدنيا » ،وأضفي هذا الاستحضار التاريخي مزيدا من حالة الشجن بالإضافة إلى توسع صورة المنكسرين التي تميزت بها الرواية .

وبقدر ما يعطي بهاء جرعة من التاريخ في الرواية عبر شخصية الإسكندر ،فانه يعطي جرعة تاريخية أخري عن واحة سيوة ،وفي الحالتين لا يتحدث عن التاريخ بأسلوب تسجيلي ،وإنما بأسلوب روائي واضح ،ومن خلاله نعرف أن واحة سيوة عاشت في ظل

حرب مشتعلة بين الشرقيين والغربيين ،ويفكر المهدي السنوسي في وضع حد لها فيقنع الطرفين بالتزاوج فيما بينهما كوسيلة لإنهاء هذا الخطر ،فتكون مليكة ابنة الخمسة عشر عاما هي الضحية ،بزواجها من معبد الهالك برغم أنه في عمر جدها ،وجرت العادة في الواحة أن فارق السن لا عيب في الزواج مادام الزوج غنيا وقادرا.

كانت مليكة كما يصفها خالها يحي :« أجمل بنات الواحة وأذكاهم تتكلم كالكبار وتصنع ما لا يصنعه الكبار ،تصنع من طين الأرض طيورا ،ومن الصلصال تماثيل صغيرة »،« لكن كل هذا الذكاء دفنته نصيحة المهدي السنوسي بالإضافة إلى أمها مع معبد، وانتظروا أن ترضي مليكة بهذا المصير».

كرهت مليكة زوجها معبد حتي مات ،ولما أرادت أن تبحث عن صحبة جميلة بعد موته لم يتركوها، ولما حاولت أن تفك أسرها من الزواج سجنوها ،قال عنها خالها يحي الذي أحبها كإبنته :«أفهم ألا تطيقي السجن وأنت الطليقة ،أنت وحدك الطائر الحر وسطنا ،نحن الجثث القعيدة ،لعلي كنت يوما مثلك ..لا ..انت الأفضل».

تمردت مليكة ،فتركت منزلها وعادت إلى أمها مصممة على عدم العودة ،لكن الشرقيين والغربيين اجتمعوا على أن مصيرها في أيديهم هم وليس في أيديها هي ، وذهب شوقها إلى حريتها حد اختيارها للموت بدلا من الحياة ،فقتلت نفسها بغرس السكين في قلبها ،وهي تسأل أمها :«لماذا باعتها ؟ ولماذا رمتها ؟ ،اعتزل خالها يحي العالم كله حزنا على موتها وسجن نفسه في حديقته» .

ويأتي يحي في الرواية كنموذج للرجل المستنير بمقاييس بيئته، هو من الغربيين، وكان فارسهم في شبابه، لم ينهزم في قتال ولم يتراجع أمام العدو ، لكن صدره كان يضيق يوما بعد يوم بالحرب ومن مجازرها ، حتى قرر أن لا يشارك في حرب كان تومه فيها هم الظالمين ، فجاءه الإخوة والأعمام يترجوه أن لا يتركهم .فقال لهم إذا كنتم تريدونها حربا فلتكن آخر الحروب ، نقاتلهم حتى يفنوا هم ،أو نفني نحن ، فقبلوا

شرطه وأقسموا على ذلك ،لكنه اكتشف العجب في الحرب ،حيث رأي رجال قومه ينهزمون وينسحبون ،وبقي وحيدا يواجه الشرقيين بشجاعة ،وكانوا في إمكانهم قتله ، لكنهم وبعد إحدى الطلقات اندفعوا نحوه يقبلون رأسه ،ويقولوا له أنت أشجع من أنجبت الأرض ،وعرضوا عليه أن يبقي ويعيش وسط الشرقيين مكرما ،لكنه ركب حماره ولم يذهب إلى داره ولا قومه ،ذهب إلى متاهة الصحراء عازما ألا يعود .

اعتبر أهل الواحة من الغربيين ما فعله يحي جنونا ،لكنه كان يقول لنفسه : « أحببت قومي حتي تمنيت لهم الفناء ليعيش من يعيش في سلام ».

رغم كل هذه الشجاعة والفروسية من يحي إلا أنه يصبح عاجزا أمام مليكة »، يفشل في إنقاذها مما آلت إليه بدرجة تؤكد أن البيئة كانت قاسية للدرجة التي تتبخر معها أي نسمة للحرية والتغيير والاستنارة ،ومن هذه الوجيعة نفهم كم بلغ الانكسار مبلغه ،ومعه وبه انتحرت مليكة ،واعتزل يحي العالم كله.

كان اعتزال يحي العالم كله اختيارا منه ،وعقابا لنفسه ،ونموذجا مضافا لحالة الانكسار لمعظم أبطال الرواية ،التي تنفذ إلى معني انكسار الوطن في لحظة تاريخية معينة ، فالكل في الرواية على هذا الحال،حتي لو كان بنمط اليوزباشي وصفي الذي يري في أبطال الثورة العرابية مجرد خونة ،ويري في أن أجدادنا عظماء لكن الإنجليز هم الذين يكتشفون لنا ذلك ،وان الأحفاد لا يصلحون إلا للإحتلال ، وحتى لو كان مثل فيونا المريضة القديسة شقيقة كاثرين التي تموت وتكتشف كاثرين أن زوجها محمود كان يحبها بالرغم من أن شقيقتها.

تكتمل صورة الانكسار في الرواية حين لا يجد محمود إلا اختيارا وحيدا أمامه وهو تفجيره للمعبد ،ويذهب إلى هذا الاختيار قائلا لنفسه :« يجب أن ننتهي من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب ،سيشكروننني ذات يوم ،لابد أن يشكروني ».

تتطاير أحجار المعبد حول محمود بعد أن قام بتفجير أصابع الديناميت فيه ، يحدث نفسه :« لماذا انتظر في الخارج ؟ هل سيعاودني الجبن في آخر لحظة ؟لا، أنا آت هيا .. جريا إلى داخل المعبد ،أجري لكني أسقط على الأرض قبل أ ن أبلغه ،آراه قبل السقوط يندفع نحوي ،يرتطم الحجر برأسي فأسقط ويحل نوم ،لكني أصحو مرة أخري أمد يدي إلى رأسي ورقبتي فأحس اللزوجة وسخونة الدم وألمس الشظية الكبيرة المرشوقة في رقبتي .. أحاول انتزاعها بيدي الخائرة فلا أفلح ..لم يكن هناك ألم ..وتوهج فجأة نور في داخلي ،نعم ، الآن يمكن أن أري كل شيء ... أن أفهم كل ما فاتني في الدنيا أن أعرفه .. أحاول أن أرفع رأسي فلا أستطيع ... يخبو النور وتحل هجمة السبات الثقيل وأسمع صوتا متهدجا أجش يزعق باسمي كأنه يبكي .. فأقول وأنا أغمض عيني شكرا ..لك ..لأنك ...تأخرت»

الموت

الموت هو النهاية لبطلي الروايتين ، ذهب إليه محمود في « واحة الغروب » بإرادته واختياره ،وذهب إليه «الراوي » في « الحب في المنفي » مستسلما لقدره، لكن المقدمات إلى الموت في الحالتين تكاد تكون واحدة من زاوية الأجواء النفسية للشخصيتين،فكلاهما عاش ما يمكن تسميته ب« الخراب النفسي » بعد أن خسرا أحلامهما، وغاص كلاهما في حوارات مع النفس والغير أملا في العثور على إجابة لأسئلتهما المعلقة ،ولم يصلا إلى شيء ،اختصر كلاهما مسيرته في كلمات معبرة ، والخلاصة التي تولدت من ذلك أن هزيمتهما لم تكن هزيمة فردية،وإنما هي هزيمة وطن، هزيمة بدأت مع فشل الثورة العرابية عام ١٨٨١ ، وأدت إلى الاحتلال الإنجليزي ، وتواصلت المسيرة مائة عام لتجئ خلالها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، ومع هزيمة مشروعها ، جاءت مذبحة صبرا وشاتيلا.